

لا طهران عاصمتي، ولا دمشق، ولا أبتاع أو أشري

بقلم الياس بجاني

مسؤول لجنة الإعلام في المنسقية العامة للمؤسسات اللبنانية الكندية

أهداني صديق قبل أسبوع كتاب جديد صدر في بيروت مؤخراً يحمل أسم "مداميك" لمؤلفه السيد شربل بركات، فتساءلت أولاً عن هذا العنوان والمقصود منه قبل أن أبدأ بقراءته، وإذا بي أجد على غلافه تفسيراً أعجبنى وكأن كاتبه قد استبق تساؤلي فوضّحه على الغلاف نفسه. "فالمداميك" كما أرادها بركات هي "القرى والأحياء والمجموعات البشرية" التي تشكل وطننا لبنان، وتدور قصته حول أحد الحيطان الخارجية التي تؤلف سياج الوطن، وهو "الحائط الجنوبي". أما حجارة هذا الحائط فهي لا تختلف عن حجارة الحيطان الباقية، وهي متنوعة بألوانها وصلابتها وحساسيتها وتجانسها، وهي لو لم تكن صلبة ومتماسكة لكان انهار "حيطنا" منذ زمن طويل لكثرة ما واجهه من مشاكل وصعوبات.

يحملنا الكاتب في "مداميكه" إلى الجنوب اللبناني العزيز على متن باخرة لا تصلح في بلاد العالم الأخرى لنقل الحيوانات، ولكنها وسيلة الجنوبي الوحيدة للاتصال بالعاصمة بيروت. ونعيش معاناة جزء من الوطن بكل تفاصيله من تحكم الميليشيات إلى قلق السفر والانسلاخ عن البيئة إلى مزاجية القوى الغريبة، ثم يغوص بركات في مشاكل الأفراد وهي عيّنات عن مشاكل الوطن كله. فإذا بهذه الباخرة التي تحمل الشريط الحدودي تحمل الوطن كله في رحلة الحرب القاسية تلك.

ويعود بنا الكاتب إلى تلال الجنوب فيتجول معنا في منطقة نكاد لا نعرف عنها إلا الاسم وهو ينتقل في تاريخها وجغرافيتها وانسانها الذي عرفه جيداً وعاش مشاكله وآماله وصلابته وإصراره على الحياة والبقاء، وفي نفس الوقت قدره الذي يرافقه قهراً وعدم تقدير لكل ما يقوم به هذا الشعب العنيد الجنوبي في ترابه الرافض التهجير والاستزلام، والذي لم يكتب على خريطة الوطن إلا للبقاء والاستجداء، ولم يزل يحارب به دون أن يُسأل عن رأيه وقد أرادوا له دور الضحية ولكنه هنا في "مداميك" أظهر بالرغم من كل شيء بعد نظر ليته تحلّى به من يجلس على كراسي الحكم في بيروت، وشجاعة لم يماثلها إلا القلائل، وقد أخذ المبادرة يوم تهجرت الدولة فصار هو الدولة تحمي الناس أرواحاً وممتلكات. وبدل أن يتسكّع مستجدياً على أبواب المحسنين، أصبح ملجأً للمضطهدين، وقد صمد في أرضه ودافع عنها وتجاوز محناً كثيرة.

في كتاب "مداميك" يروي لنا بركات الذي عاش جزءاً مهماً من تاريخ الجنوب تفاصيل عن أحداث جرت في الماضي وأمثلة عن معاناة الناس في الظلم وعدم وجود القانون وفي

مزاجية المليشيات وفي قهر المنظمات الغربية وتنكيلها بالناس، ويوميات الخطف على الحواجز التي فرضت قطع الطرق وانعزال الناس في دوائر صغيرة. ويروي لنا أيضاً بعض المواقع ويوضح بعض التفاصيل حول قرارات كان لها تأثيراً كبيراً على المنطقة ولبنان خلال سنوات ١٩٧٦ - ١٩٨٦.

ولكنه يعيدنا إلى الأمل في وحدة أبناء الوطن المختلفين على كل شيء ولكن ليس على الأرض التي يتقاسمون، ولا على القيم التي يتشاطرون، ولا على المصير الذي يدفعهم رغماً عنهم أحياناً لكي يتوحدوا ليكونوا متميزين عن غيرهم، فيشكلون وطناً مستقلاً ومتميزاً بالفعل. وإذا يطرح بركات بعضاً من آمال أهل المنطقة الحدودية في مستقبل زاهر سوف يغمر الوطن عند حلول "السلام الآتي" ويكون الجنوب مركز استقطاب للمهاجرين بدل أن يكون مركز تصدير للحرب والدمار، يُعرفنا إلى بعض جوانب ثراء الجنوب وإمكانياته في المرحلة المقبلة من تاريخ هذه المنطقة التي عاشت حروب الآخرين وصمود أبنائها في أرضهم وتحملهم مسؤولياتهم بدل أن يتركوا هذه المسؤولية على عاتق الغرباء. والكاتب هو مسيحي جنوبي يعطينا صورة جميلة عن تاريخ الجنوب وقيمه الذي يسميه "بلاد البشارة" تارة، ويفاخر به كجبل عاملة تارة أخرى، مشدداً على دور كل الطوائف وثباتها فيه قائلاً على لسان شاعرها:

أنا ابن عامل من أوشاله سكرت	روحي وعبا الفؤاد الطيب والخيرا
أنا ابن قانا فهل تدرون موقعها	حيث الأجائين فاضت بالسنى خمرا
أنا ابن ميسٍ مراح الخير باركها	طهر الغفاري فاستعلت به طهرا
أنا ابن بياضة الخلوات قدسها	موحد يذخر التقوى له ذخرا
أنا ابن عامل والملول ظللني	واللوز كللني من زهره زهرا
والسنديان على التلات جاورني	والأقحوان حباتي بوحه عطرا
وشتلة التبغ كم رويتها عرقا	فجرعتني الشقا من مرها مرا
وظلت مستكاً بالأرض مرتبطاً	لا أبتغي منةً ترجى ولا أجرا
أنا ابن عاملة لا طهران عاصمتي	ولا دمشق ولا أبتاع أو أشرى
والأرض أرضي وهذا البيت مملكتي	أتيه فيه على مروان أو كسرى

أن "مداميك" شربل بركات، وهو نفسه "مدماك جنوبي"، تروي معاناة أهلنا في الجنوب البطل بكل أبعادها الإنسانية والحياتية والوطنية. إن "مداميك" قصة شعب عريق تاريخه متجزر في تربة أرض مقدسة مجبولة بعرقه ودمه، شعب تعلق بهذه الأرض ورفض التخلي عنها وأصر على التشبث بانتمائه اللبناني رغم تخلي الجميع عنه، فتحية منا لبركات ولمداميكه.